طرف الثُّمام من كلمات الإمام

قال الإمام الشافعي[1]: ما أكرمتُ أحدًا فوق مقداره إلا اتَّضَع من قدري عندَه بمقدارِ ما أكرمتُه به.

اتضع: انخفض وانحطَّ من قدري.

الغلوُّ كله شرّ ولو كان غلوًّا في جانبِ الإكرام والتقدير والثناء، فَجَرَت العادةُ أنه ما غلا الإنسان في أحدٍ من الناس ومَنَحَه فوقَ ما يستحق، وزادَ في مودَّته أعلى مما يَستوجِب إلا كان ثمنُ الزيادةُ نَقْصًا في حقِّه، ذلك أن النفوس البشرية لا تحتملُ من الإكرام واللطف والثناءِ إلا بقَدْرِ ما فيها، فإذا فاضَ الإكرام عن الحاجةِ أحدَثَ عندها اضطرابًا وَقَلَقًا وسوءَ تقدير وتدبير.

**

وقال: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته. وقال: من صدق في أخوة أخيه قبل علله، وسد خلله، وعفا عن زَلَلِه.

المداراة: الملاينة والملاطفة، والمقصود كثرتها، وإلا فالمداراة محمودة في أصلها.

من شأن الأخوة الحقيقية إلقاءُ التكلف واطِّراحُ التصنّع وكثرةُ التعاذر، ولا يعني ذلك التفريط بحق الصديق اعتمادًا على عذرِه، وهضم جانبه اتكاءً على مودّته، وإنما تشير العبارتين إلى أن كثرة المداراة مع ترادف اللوم يصدّع جدران المودة، وإلى أن توالي التبريرات مع تراكمِ العَتَب يمزّقُ أثواب المحبة، فمن أعظم دلائل الصداقة الحقيقية بقاء النفس مسترخيةً تسير باطمئنانٍ على سجيَّتِها التامة في حضرة الإخوان كما هي في غيابهم، وإذا كانت الصداقة بين الإخوان ميثاق روحي فإن الاحترازات داء الأرواح.

**

وقال: المعتذرُ مِن غيرِ ذنبٍ يوجب على نفسه ذَنْبًا.

الاعتذار هو إقرارٌ مضمَّن بالجرم واعتراف مؤكد بالجريرة، فإذا اعتذر الإنسان من غير ذنبٍ أوحى فعله إلى المعتذَرِ له أن صاحبه –رغم براءة ساحته– واقعٌ في براثن الخطأ عليه ومنزلق في مهاوي التقصير في حقِّه.

[1] قال الذهبي: بلغنا عن الإمام الشافعي ألفاظ قد لا تثبت ولكنها حكمٌ، فمنها:.. ثم ساق طرفًا من الكلمات المنسوبة إليه.

وكذا المبالغة في الاعتذار والمغالاة فيها تحول حتمًا دون معرفة مقدار الخطأ، وتبني في نفس المعتَذَرِ له أوهامًا هائلة من الخيالات في تصوّرِ الأحداث وتحفزه إلى إعادة تقييم المواقف، فالاعتدال حسنٌ في كلِّ شأن. ولا يتنافى هذا مع رَدْمِ هوّة الشقاق ونزع فتيل النزاع بين الأصحابِ بشتى الوسائل ولو من غير اعتذار، فهي من أعظم دلائل النبل في نفوس الأصحاب.

**

وقال: لا تقصِّر في حقِّ أخيك اعتمادًا على مودَّتِهِ.

المودة دون شكّ عملٌ قلبيّ، ولكن ما أضمر الإنسان سريرةً إلا بدت من فلتات لسانه وحركات جوارحه، فإذا ادعيت المودّة ولم تظهر دلائلها واضمحلَّت براهينها، وقام ما يدل على ضدها من الإجحاف والتقصير كانت مجرّدَ دعوى لا يقضي بها حاكم، ومَحْضَ خُردةٍ لا يقام لها في سوق الأحباب وزنًا.

**

وقال: لا تبذلْ وَجْهَكَ لمن يهون عليه رَدُّكَ.

كل شيء يُبذل إلى من لا تقرُّ عينه به فهو خسارة محضة، وأعزُّ ما على الإنسان وَجهه، فهو يصونه من الابتذال، ويحرسه عن التذلل، ويحتاط له من الاستخذاء، ولو اضْطُرَّ للسؤال أو الشفاعة لنفسه أو لغيره فعندَ من يرى له كرامة، ويقدِّر له قَدْرًا، ويحتمل له مقامًا، ولا تحمله الأطماع العابرة على تدنيس محيّا وجهه بسؤال اللؤماء والتماس الحاجات منهم.

**

وقال: من بَرَّك فقد أوثقَك، ومن جَفَاكَ فَقَد أطلقَك.

هذا المعنى يعرفه أشراف الناس ويدركه أصحابُ المروءة فيهم، ولكنه يَدِقّ عن فهم كُنْهِه اللؤماء منهم، ولذلك توارد على الإبانة عنه عدد من الأعلام عبر التاريخ، فلا شيء يقيد الرجل النبيل ويجعله في حرزٍ مكين مثلَ سابقةِ الإحسانِ إليه، فالإنسان النبيل يأسره المعروف، ويستبقيه البرُّ، ويوثقه الإكرام، ومن ثَمَّ يحمله على الإعراض عن كثير من الزلات والهفوات، ولذلك تقول العرب: **قيَّدَ فلانًا بالإحسان**. أي مَلَكَ

قَلبَه بِه. وقال المهلَّب: **عجبت لمن يشتري المماليك بمالِه، ولا يشتري الأحرار بمعروفه**. وقال المتنبي: **ومن وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تقيَّدا!**

**

وقال: ما ضُحِكَ من خطأ رجلٍ إلا ثبتَ صوابُهُ في قلبه.

تبقى الذاكرة في حالة ركود وخمول قسري، فتمرّ بها مواقف كثيرة ومعارف جمّة وهي لا تكاد يستقر فيها شيء، حتى إذا دخل القلب في حال انفعالية انفتقت الذاكرة وغرست في جوفها كلَّ الأحداث والمعارف والأشخاص والمشهد كاملا المرتبط بها، وربما غرست في جوفها حتى الروائح المنبعثة في لحظات الانفعال العميقة، فيستقر في القلب في تلك الآونة الانفعالية معارف جمة، والإمام الشافعي في هذه العبارة العميقة يشير إلى لحظة من لحظات الانفعال العقلي، وهي حينما يضحك أحدٌ من خطأِ إنسانٍ فإن تفكيرَه يدخل في حالةٍ من أحوالِ التحفُّز الذهني وشوطٍ من أشواطِ التوثُّب العقلي، فيتشوَّف حينها إلى معرفة الصوابِ في تلك المسألة التي غُلِط فيها فضُحِك منه، ويثبت الصواب في قلبه على طول المدى. ولذلك تجدُ كل إنسان يحتفظ في ذاكِرَتِهِ بمواقفَ مشابهة موغلة في القِدَم سواءً من صديقٍ أو أستاذٍ أو زملاء في فَصلٍ دراسي، وكلها مواقفُ تدلُّ على عُمق العبارة ودقَّتِها.

**

وقال: لو أوصى رجل بشيءٍ لأعقلِ الناسِ صُرِف إلى الزُّهّاد.

هذه عبارةٌ شهيرةٌ عن الإمام الشافعي، وهي عميقةُ الدَّلالة في معناها، وهي ليست على إطلاقِها، والمراد منها أن أعقل الناس على الحقيقة هم الذين آثروا الحياة الباقية، ولم يطمئنوا إلى زخارفِ الدنيا الفانية، وليس المراد بالعقل في هذه السياقات الشريفة الدهاء والتدبير والقدرة على الفذلكة والتدقيق، ولذلك لما ذكر الله تعالى أولو الألباب وهي العقول في القرآن ذكر أنَّ من صفاتهم بأنهم (**ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**)، وبالمقابل ذكر أن كلام أصحاب النار يوم القيامة: (**وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**)، فَنَفَوا عن أنفسهم العقلَ الذي يدلهم على الإيمان وإيثار الدار الآخرة.